بسم الله الرحمن الرحيم

مادة /مدخل العلوم السياسية

محاضرة (٥)

(موجز)

القائمان على التدريس: د/أحمد وهبان – د/أسامة العادلي

كلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية – جامعة الإسكندرية

مكيافيللي كنموذج لمفكري عصر النهضة(١٤٦٩: ١٥٢٧)

بيئته ونشأته

ولد نيقولا مكيافيللي بفلورنسا الإيطالية عام ١٤٦٩، حيث كانت إيطاليا وقتذاك مقسمة إلي خمس دويلات من ضمنها فلورنسا. وقد عُني مكيافيللي منذ نعومة أظفاره بقراءة التاريخ حيث كان يجيد اللغة اللاتينية. وفي ظل أجواء سياسية فاسدة عاش مكيافيللي حياته، حيث حالة من الحرب الدائمة بين الإمارات الإيطالية تقوم عليها عصابات من المرتزقة المأجورة التي لا تدين بالولاء إلا للمال، كما سادت الإمارات المؤامرات والدسائس، وانتشر الفساد الأخلاقي، بحيث أصبح الإيمان والصدق والخير مجرد وساوس صبيانية لا يؤمن بها من يرى نفسه مستنيراً من البشر، وأصبحت القوة و الحيلة والخديعة هي مفاتيح النجاح، غير أن هذه

الحقبة كانت في ذات الوقت بداية ما يعرف بعصر النهضة في أوربا حيث بدأ العقل الأوربي يدير ظهره لمملكة السماء و يعطي وجهه لمملكة الأرض فيفصل بين الدين (الكنيسة) والدولة (فكرة العلمانية) الأمر الذي أسهم دون شك في استشراء الانهيار الأخلاقي، وفي المقابل بدأ عصر الكشوفات الجغرافية كالأمريكتين، كما اخترعت الطباعة.

وقد عمل مكيافيللي في شبابه أميناً لهيئة العشرة للحرية والسلام التي تمثلت وظيفتها في الاتصال بممثلي فلورنسا الدبلوماسيين في الخارج، وقد هيأت هذه الوظيفة له أن يزور دولاً أوربية موحدة عديدة حال إسبانيا وفرنسا وإنجلترا، وأصبح حلم حياته أن يرى بلاده إيطاليا وقد توحدت في دولة واحدة. غير أنه بحلول عام ١٥١٢ وصلت إلى الحكم في فلورنسا أسرة من الصيارفة هي أسرة المديتشي بعد أن أطاحت بالجمهوريين، وسرعان ما ألغت الحكومة الجديدة هيئة العشرة للحرية والسلام ففقد مكيافيللي وظيفته، وجلس في بيته الريفي حزيناً، لكي يؤلف كتابه الشهير في عالم فن السياسة والحكم ألا وهو كتاب الإمارات والذي اشتهر بمسمى الأمير، وهو الكتاب الذي تضمن مجموعة من قواعد فن الحكم والسياسة قدمها مكيافيللي للأمير الجديد على هيئة نصائح، نصحه بالتزامها حتى يدوم سلطانه ويرسخ حكمه وتتوطد أركان عرشه، ويكون قادراً على تحقيق حلم الإيطاليين في الوحدة. وهي نصائح كلها قامت على الفصل التام بين السياسة والأخلاق.

منهجه

هو المنهج الاختباري الصرف (الاستقرائي) القائم على ملاحظة الواقع، بهدف تقديم صورة للواقع كما هو دون تفسير أو تعميم، حيث كل ما قام به مكيافيللي كما قلنا

هو تقديم مجموعة من قواعد العمل السياسي المصورة من الواقع، دونما تدخل من جانبه بالتفسير أو التعميم، وبذلك فهو يعتبر رائداً لفن السياسية لا علم السياسة.

فكره السياسي

قدم مكيافيللي للأمير مجموعة من النصائح تتعلق بالسياسة الداخلية (أي سياسة الأمير لرعاياه)، وأخرى تتعلق بالسياسة الخارجية (أي علاقة الأمير بأمراء الدول الأخرى)، وهي كلها قائمة على الفصل بين السياسة والأخلاق، ويرى مكيافيللي أن اتباع هذه النصائح (أو قواعد العمل السياسي) من شأنه أن يديم حكم الأمير ويرسخ سلطانه، ويوطد أركان عرشه ويجعله قادراً على توحيد إيطاليا، حيث يبدأ كلامه للأمير مذكراً إياه بأن جموع الإيطاليين تتطلع إلي بيته كي يجمع شتاتهم في دولة واحدة.

السياسة الداخلية للأمير

نصحه مكيافيللي ألا يعبأ بالفضائل بل وأن يلجأ إلي الرذائل إن كان ذلك يحقق مصلحته، فلا يجب على الأمير أن يكون كريماً لأن الكرم يؤدي إلي الفقر وهو إن افتقر سيخسر هيبته لدى رعاياه، وعليه أن لا يكون طيباً لأن ذلك يثير روح الثورة عليه في نفوس رعاياه، أما القسوة فتقيم النظام وتمنع الفوضى وتحقق الوحدة وتقضي على الفتنة وهي في المهد، كما أن رضا الرعايا متغير فلا تعتمد في استمرار حكمك على رضاهم، بل اعتمد على قوتك فهي إن دامت سيدوم حكمك. ويضيف مكيافيللي: أنا لا ألوم الحاكم الروماني روميلوس الذي قتل أخاه وشريكه في الحكم لكي ينفرد بالسلطة ويوطد سلطانه، ولا ألوم الروماني الآخر بروتس الذي حكم على أولاده الخمسة بالموت لكي يستمر عرشه، فإذا كانت الواقعة (أي القتل) تتهمه فإن الغاية النبيلة (أي دوام سلطانه) تبرؤه. ويضيف: ربما يكون هذا

الكلام ليس طيباً لو أن الناس كانوا طيبين لكن الواقع أن الأصل في بني البشر أنهم كذابون منافقون غشاشون جشعون نهمون شريرون مراؤون لا يتطلعون إلا إلى ما ليس في أيديهم، كما أنهم ربما يسامحونك إن قتلت أباهم لكنهم أبدا لن يسامحوك إن سلبت أموالهم.

السياسة الخارجية للأمير

أما بصدد السياسة الخارجية أي علاقة الأمير بأمراء الدول الأخرى فقد بدأ بوصف العلاقات الدولية وكأنها غابة، ونصحه بأن يجمع بين أسلوب الإنسان وأسلوب الحيوان، فإن اختار أسلوب الحيوان فعليه أن يكون ثعلباً وأسداً في ذات الوقت، أي يتبع أسلوب الثعلب القائم على الحيلة والمكر والخداع والمراوغة و النفاق والرياء، وأسلوب الأسد القائم على القوة والعنف والبطش. (ذكاء الثعلب وقوة الأسد). فبالنسبة لأسلوب الثعلب على الأمير أن لا يفي بالعهود التي يقطعها على نفسه للأمراء الآخرين إلا إذا كان في الوفاء بالعهد مصلحة له، وعلى الأمير أن يتزين أما العالم الخارجي بحلل زائفة من الصدق والسلام والعدل والوفاء (ذئب في جلد شاة)، وأن يظهر أمراء الدول الأخرى بأنهم هم الكاذبون وخالفو العهود، إن الأمراء الذين أجادوا أساليب الثعالب وأفلحوا فيها فعرفوا كيف يحيكون الغش والخداع كان التوفيق حليفهم الدائم.

كذلك على الأمير أن يكون أسداً فيبني جيشه النظامي القوي الذي يدين بالولاء له، فلا يجب أن يعتمد الحاكم على المرتزقة الأوغاد الذين لا يدينون بالولاء إلا للمال، القوة ثم القوة فإن الأمير الذي لا يهتم ببناء قوته (جيشه) كمن يركض إلى هلاكه، وويل للأمراء منزوعي السلاح.

إذن علي الأمير أن يكون ثعلباً وأسداً في ذات الوقت لأنه إن كان مجرد ثعلب عجز عن التعامل مع الذئاب والغابة الدولية مليئة بالذئاب، وإن كان مجرد أسد عجز أن يتبين ما ينصب له من فخاخ والغابة الدولية مليئة بالفخاخ.

عليك أن تبدأ بأسلوب الثعلب فإن لم يفلح أسلوب الثعلب في خطف عنقود العنب فليسمع زئير الأسد (أي إن لم تجد الدبلوماسية فلتدق طبول الحرب).

تقويم فكر مكيافيللي

اختلف المفكرون والساسة ورجال الدين حول أخلاقية هذا الفكر، حيث مجده البعض على النحو التالي:

_ كتب أحد الأمراء الإيطاليين على نصب تذكاري أقامه على قبر مكيافيللي (ارقد في سلام لا كلمات ترقى إلي شرف هذا الرجل).

_ المفكر الإنجليزي فرانسيس بيكون: كم نحن مدينون لهذا الرجل، فهو الذي أرانا حقيقة عالم السياسة، إذ علمنا الفارق بين براءة الحمامة ورياء الثعبان على نعومة ملمس كليهما.

_ نابليون الثالث كان لا يقرأ ليلة الحرب إلا كتاب واحد هو كتاب الأمير.

في المقابل اعتبرت الكنيسة أن مكيافيللي هو شيطان رهيب هبط على الإنسانية فاراً من الجحيم، وأن كتابه الأمير هو كتاب أودعته يد الشيطان.

****

فلاسفة العقد الاجتماعي

وهم توماس هوبز و جون لوك الإنجليزيان و جان جاك روسو الفرنسي، والذين عاشوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويقولون بأن المجتمع السياسي (الدولة) نشأ من خلال عقد أبرمه الناس فيما بينهم، هو (العقد الاجتماعي).

منهجهم

هو المنهج الفلسفي المثالي بمقدمات عقلية، حيث تنطلق أفكارهم من فرضين عقليين هما:

(١) حالة الطبيعة: ويعني أن الناس قد عاشوا في حالة من الطبيعة لا تعرف السلطة ولا المجتمع ولا السياسة قبل قيام المجتمع (أو الدولة).

(٢) العقد الاجتماعي: ويعني أن الناس قد انتقلوا من حالة الطبيعة إلى حالة المجتمع من خلال عقد أبرموه فيما بينهم.

وقد اتفق الفلاسفة الثلاثة على هذين الفرضين غير أنهم اختلفوا على مضامينهما (فحواهما أو محتواهما)، لكي ينتهي كل منهم إلي صورة مختلفة عن الآخرين بصدد أمثل أشكال الحكومات،،، وذلك على النحو التالي:

توماس هوبز (١٥٨٨: ١٦٧٩)

نبذه عن بيئته ونشأته

ولد في إنجلترا عام ١٥٨٨ وتوفي عام ١٦٧٩، وكانت ولادته في غير موعدها الطبيعي حيث خرج إلى الدنيا قبل أن تكمل أمه شهور حمله التسعة، وقد كان يرجع سيطرة الخوف عليه إلى مولده الشاذ هذا، وكان يقول دائما (أنا والخوف توأمان)،، ومع ذلك فقد كان الرجل يجمع بين جسد مخواف وروح مقدامة، وكان من الأسباب الأخرى التي جعلت الخوف الدائم يسيطر عليه أنه عاش حياته في فترة عانت فيها إنجلترا من صراعات هائلة منها ما هو ديني (يتصل بالدين والكنيسة) ومنها ما هو سياسي بين البرلمان والملك، وعلى ذلك فقد كانت غاية فكره هي تحقيق الأمن والسلام داخل المجتمع.

فكره السياسي

قدم هوبز أهم أفكاره السياسية في كتابه الشهير (لوفيثان) واللوفيثان هو وحش أسطوري ضخم ورد ذكره في العهد القديم، ويشير هوبز باللوفيثان إلى الدولة كمجتمع إنساني ضخم، وينطلق فكر هوبز (شأنه في ذلك شأن فكر كل من لوك وروسو) كما قلنا من فرضين عقليين هما: حالة الطبيعة والعقد الاجتماعي الناقل للناس من حالة الطبيعة إلى حالة المجتمع (الدولة). أما فحوى الفرضين عنده فهو على النحو التالي:

(١)حالة الطبيعة: هي حالة شر وتعدي، حالة حرب دائمة بين الفرد والفرد، والكل والكل، الإنسان فيها ذئب لأخيه الإنسان، لا أحد يأمن على نفسه ولا على ممتلكاته.

ثم كان أن اجتمع الناس للخروج من هذه الحالة السيئة فأبرموا عقداً أنشأوا من خلاله المجتمع (الدولة). وهو:

(٢)العقد الاجتماعي: وهو عند هوبز عقد أطرافه الناس جميعاً من جهة، وفرد ليس طرفاً في العقد(وبالتالي لا يتحمل بأية التزامات) من جهة أخرى، وبمقتضى هذا العقد تنازل الناس عن كافة حقوقهم التي كانت لهم في حالة الطبيعة لذلك الشخص (الذي أصبح الملك)، دون أية التزامات عليه (لأنه ليس طرفاً في العقد)، ولكن عليه واجب واحد فقط هو بناء قوته وصيانتها حتى يتمكن من تأمين ركب الجماعة، وتحقيق الأمن والسلام في ربوع المجتمع . ولعل من المقولات البليغة المعبرة عن هذا العقد مقولة الدكتور محمد طه بدوي (رحمه الله): إن مثل الموطن في دولة هوبز كمثل رجل اشترى بكل ماله خزانة وماله بعد شرائها من مال ليضعه في تلك الخزانة!!!

وبناءً على ما تقدم فإن أمثل أشكال الحكومات عند هوبز هي الملكية المطلقة أي التي لا تتقيد بأية قيود دستورية أو غيرها، معتبراً إياها القادرة على تحقيق الأمن والسلام داخل المجتمع، وهو ما كان هوبز يتمناه ويتحرق شوقاً إليه.

جون لوك (١٦٣٢: ١٧٠٤)

بيئته ونشأته

ولد في إنجلترا عام ١٦٣٢ و توفي عام ١٧٠٤ وقد عاصر صراعاً على السلطة والسيادة بين التاج (الملك) والبرلمان، وكان من أشد أعداء السلطة المطلقة للملك لذلك فقد ناصر حزب الهويج (المؤيد للبرلمان) في مواجهة حزب التوريز(المؤيد

للملك)، وقد جاء لوك بمبدأ سيادة الأمة حيث قال بأن السيادة ليست للملك ولا للبرلمان وإنما السيادة للأمة، ولكن نظراً لأن الأمة هي كينونة اعتبارية فلابد من جهاز عضوي يمارس سيادة الأمة نيابةً عن الأمة وهذا الجهاز هو البرلمان المنتخب من الأمة، بمعنى أن البرلمان هو نائب عن الأمة في ممارسة السيادة، وعلى ذلك فأي نظام يأخذ بمبدأ سيادة الأمة يعرف بأنه(نظام نيابي).

حالة الطبيعة والعقد الاجتماعي عند لوك

(١) حالة الطبيعة: على عكس هوبز يرى لوك أن حالة الطبيعة كانت حالة طيبة، الناس فيها أحرار سواسية يتمتعون بحقوق طبيعية ترتبت لهم باعتبارهم بشراً، وأهم هذه الحقوق هي الحرية والملكية، غير أن الناس أرادوا أن ينتقلوا من هذه الحالة الطيبة إلى حالة أفضل فاجتمعوا وأبرموا عقداً وهو:

(٢) العقد الاجتماعي: وهو عند لوك عقد أطراف الناس جميعاً من جهة، وأحدهم (الذي سيصير ملكاً) من جهة أخرى، وبالتالي فهذا الشخص هو طرف في العقد وبالتالي يتحمل بالتزامات، وبمقتضى هذا العقد تنازل الناس لحساب ذلك الشخص عن بعض حقوقهم الطبيعية فتولدت له بذلك السلطة عليهم في مقابل أن يلتزم (أي الملك) بصيانة ما تبقى للناس من حقوق وحريات طبيعية وإلا حقت لهم الثورة عليه وخلعه، وبناء عليه فشرعية السلطة عند لوك مرهونة (مشروطة) بالتزام الحاكم بصيانة الحقوق والحريات الفردية وإلا فللناس(الشعب) حق الثورة عليه، وإذن فأمثل أشكال الحكومات عند لوك هي الحكومة المقيدة، أي التي لا تحكم بالهوى وإنما استناداً إلى قانون، والتي تلتزم في ذات الوقت بصيانة الحقوق والحريات الفردية.

جان جاك روسو (١٧١٢: ١٧٧٨)

هو فيلسوف فرنسي عاش حياته في القرن الثامن عشر، وأهم مؤلفاته كتاب العقد الاجتماعي، وكان يرفض فكرة النيابة والنظم النيابية .

حالة الطبيعة والعقد الاجتماعي عند روسو

(١)حالة الطبيعة: يراها روسو حالة طيبة الناس فيها أحرار، وقد عبر عن ذلك بمقولته الشهيرة: يولد الإنسان حرا لكنه مكبل بالأغلال في كل مكان،، كيف حدث هذا؟ ثم يقول بنشأة المجتمع من خلال العقد الاجتماعي على النحو التالي:

(٢) العقد الاجتماعي: وهو عند روسو عقد تنازل الناس بمقتضاه عن حقوقهم الطبيعية لصالح الكل أو الإرادة العامة، والتي هي تتكون من مجموع إرادات الأفراد، وإذن فالسيادة هي للشعب أو الإرادة العامة التي لن تكون جائرة لأنه لا يتصور من الفرد أن يجور على نفسه، أما الحكومة أو البرلمان فهما ليسا صاحبي سيادة، ولا حتى ينوبان عن الشعب أو الإرادة العامة وإنما هما مجرد مندوبين(خادمين) عند الشعب صاحب السيادة لأنه لا أحد ينوب عن الشعب صاحب السيادة، وقد انتقد روسو فكرة النيابة وسخر منها قائلا: إن الشعب الإنجليزي يعتقد أنه حر، غير أن الحقيقة أنه ليس حراً إلا أثناء عملية الانتخاب فإذا ما انتهت هذه العملية انقلب عبدا للبرلمان.

##########

تحياتي